توظيف العلوم الاجتماعية في الجامعات الجزائرية لبناء وتصحيح مفهوم الهوية

عبد الجبار صديقي[1] د. مصطفى مغزاوي[2]

1- قسم التاريخ، المركز الجامعي النور البشير البيض، abdeldjabarseddiki@gmail.com

2- قسم التاريخ، جامعة الشلف، m.meghazaoui@univ-chlef.dz

تاريخ الإيداع: 2019/01/05 **تاريخ المراجعة:** 2019/01/05 **تاريخ القبول:** 2019/10/07

ملخص

لا يُمكن أن نُحمِّلَ العلوم الاجتماعية ما لا تحتمله فننتظر من مخابر العلوم الاجتماعية إنتاج مواد استهلاكية، وإنما المُنتظر منها هو بناء الإنسان وتحميله قيمًا ومبادئ تجعل منه إنساناً نافعا، ومن المهام المنوطة بالعلوم الاجتماعية حماية هوية المجتمعات وإحياء تراثها واستثمار مكاسبها، وفروع العلوم الاجتماعية كلها معنية بهذا الواجب الوطني والالتزام الاجتماعي، وكل محاولة لتعويض العلوم الاجتماعية بممارسات أخرى هو نحرٌ لهذه الهويّة ، لذا سنحاول في هذا المقال طرح رؤية لتوظيف العلوم الإنسانية والاجتماعية توظيفًا علميًا عمليا يتجاوز الإطار النظري، من خلال سلسلة من المشاريع تنطلق من البيئة الجامعية لتعمَّم فتلامس مختلف شرائح المجتمع بهدف تنزيل مفاهيم الهوية والوطنية تنزيلا علميا عمليا على الواقع.

الكلمات المفاتيح: هوية، جامعة، علوم اجتماعية، الجزائر.

The Use of Social Knowledge Branches in Building and Correcting the Concept of Identity in Algerian Universities

Abstract

Social sciences are not laboratories for the production of consumer materials for the benefit, but what is required of them is to build the human, the tasks expected from the social sciences to protect the identity of communities, National and social commitment, and any attempt to compensate the social sciences with other practices is a killing of this identity and a failed attempt, so we will try through this article to put forward a theory to employ the human sciences and social scientific employment beyond the theoretical framework through a series of projects launched from the university in order to embody the concepts of identity and nationalism scientifically in the reality.

***Keywords**: **Identity, university, social sciences, Algeria**.*

Emploi des sciences sociales dans les universités algériennes pour construire et corriger le concept d'identité

Résumé

Nous ne pouvons pas attendre que les laboratoires de sciences sociales produisent des consommables, mais on attend d'eux que la construction des valeurs humaines, l'une des tâches assignées aux sciences sociales est de protéger l'identité. Toutes les branches des sciences sociales sont concernées par ce devoir national. Nous allons essayer dans cet article de proposer une vision théorique pour l'emploi des sciences humaines et sociales utilisant la science sociale au-delà du cadre théorique à travers une série de projets émanant du milieu universitaire pour généraliser les différents segments de la société afin d'incarner les concepts d'identité.

Mots-clés**: **Identité, université, sciences sociales, Algérie.

المؤلف المرسل: عبد الجبار صديقي، abdeldjabarseddiki@gmail.com

مقدمـــــة

تـــُقدّمُ العلوم الإنسانية والاجتماعية خبرة علمية ومنهجية ذات قيمة عالية في دراسة وتحليل وتفسير كل ما له علاقة بالهوية والوطنية، هذه الخبرة لا يمكن الاستغناء عنها بأيٍّ وجهٍ من الوجوه، بحيث يُمكن القول إنَّ كل حديثٍ يتناول مسألة الهوية ولا يرجع لهذه الخبرة والاستفادة منها يُعدُّ ناقصاً ومبتوراً، فمن الخطأ معالجة مسألة الهوية معالجة أمنية بوليسيّة أو قانونية جافة، مُستبعدين أو مُتجاهلين المعالجة العلمية التي تضمنها بنجاح فروع المعرفة الإنسانية والاجتماعية، لذا سنحاول من خلال هذه المقال طرح رؤية لتوظيف العلوم الاجتماعية توظيفًا علميًا عمليا يتجاوز الإطار النظري، من خلال سلسلة من المشاريع تنطلق من البيئة الجامعية لتَعمَّم فتلامس مختلف شرائح المجتمع لتنزيل مفاهيم الهوية والوطنية تنزيلا علميا عمليا على الواقع.

1- الجامعة والهوية: أيـُّهما يحتاج إلى الآخر؟

يُطرحُ هذا السؤال ويفرض نفسه بإلحاح في سياق الحديث عن إشكالية ضرورة انفتاح الجامعة على العالم ومواكبة حتمية العولمة وموقع الهوية من هذا كله، فهل الجامعة تحتاج إلى هوية تنطلق من قيمها وتخطط وفق برامجها؟ أم الهوية تحتاج إلى جامعة تضمن لها الاستمرارية والبقاء؟

لقد أضحى عالم اليوم عالم المعرفة بامتياز، فمن امتلك المعلومة فقد امتلك القوة، والجامعة – بلا شك – هي المؤسسة التي تصنع المعلومة وتسوّقها في المجتمع، فتتحكم بذلك في توجيه البوصلة الهوياتية للمجتمع، فالصلة وثيقة بين المجتمع وبين الجامعة من حيث المسؤوليّة المنوطة بالجامعة للنهوض بالمجتمع إلى أفضل المستويات.

وتأتي الجامعة في أعلى هرم النظام التعليمي لأيّ دولة، فالجامعة تتوج المجهود الوطني في مجال التعليم والتكوين في شكل مُخرجات كمية وكيفية يُفترض أن تدخل الدورة الإنمائية الوطنية بكفاءة وريادية... تهدف إلى تكوين الكوادر المرتبطة بقضايا المجتمع تخدمه وتعتز بالانتماء إليه[1].

إذا كان الأمر كذلك فهو بالنسبة للعلوم الإجتماعية أكثر أهمية ومسؤولة من أجل تشكيل وتوجيه الممارسات الاجتماعية وفق مبادئ وقيم هويّتنا، وذلك من خلال التدريس والبحث والمشاركة المجتمعية، لأنَّ التدريس والبحث العلمي وخدمة المجتمع هي مهام الجامعة الثلاث.

تأسيساً على ذلك يُمكن القول إنَّ الجامعة هي القاعدة الصلبة التي تتبنى عليها أسس الهوية، فأين موقع الجامعة الجزائريّة في البرنامج الحضاري الثقافي الذي تتبناه الجامعات الوطنية والرامي إلى تعميق الانتماء الحضاري وتعزيز الإحساس بالمواطنة؟

إنَّ مشروع الحفاظ على الهويّة بحاجة إلى مؤسسات جامعية ذات مقدرة عالية تدعمها أطر ذات كفاءة وبرامج أصيلة متجددة هادفة، تعمل على تنمية قيم الانتماء والمواطنة للحفاظ على الهوية الثقافية، وفي الوقت نفسه ترسيخ مبدأ الانفتاح على الحضارات الأخرى والتفاعل معها دون إلغاء للذات ودون غلو أو انغلاق، ولا يُمكن لهذا المعادلة الفكرية أن تنجح إلا بمقدار تماسك نواة الانتماء الوطني وقوتها الجاذبة.

يعني هذا أن الجامعة هي المؤسسة الأولى بامتياز، فهل هذا صحيح ؟ يورد جملة من الباحثين هذا السؤال في سياق فلسفي يُثبت للجامعة ما تجمعه من علوم وعلماء ولكن في الوقت نفسه لا يُعفي الجامعة من المساءلة الاجتماعية، " لأنه لابدّ وأن تكون الجامعة موضع تحكيم من طرف جهة أخرى هي مؤسسة المجتمع، لأنها مؤسسة خارج الجامعة من حيث الانتكاء الوظيفي وفي نفس الوقت لا تنفصل عنها أبدا من حيث الانتماء الاجتماعي، فهي وطيدة العلاقة بها نظرا لأن كلاً منها يتخذ له شكلا اجتماعيا يؤدي وظيفته المنوطة به، فمن المهمّ أن تكون هناك محكمة عليا خارج الجامعة ، وهو ما يؤَدِّي إلى ضرورة الاعتراف بأنّه توجد مؤسسة أخرى تضاهي الجامعة في ريادتها، من حيث إنها تقوم على عملية " الإشراف" و"الرقابة" والمحاكمة "الثقافية"، حيث يتمُّ عرض منتوجها (أي الجامعة) على هذه المحكمة التي تنتقي وتقيّم وفقا لقناعاتها ووجهات نظرها من منظور الثقافة الرسمية التي تروج لها الدولة، فإذا أردنا الحصول على صورة الجامعة الحقيقية

بما هي مشروع مجتمع، يجب أن تكون هي نفسها (أي الجامعة) في مقام التخلّي عن سلطتها المركزية لصالح المجتمع، فلا يذهب الاعتقاد أبدا إلى أ ن سلطة الجامعة بما تجمعه من العلوم والتخصصات تخول لها فرض نفسها على خيارات المنتمين إليها، أي أنه لابد من ضرورة الاعتقاد بديمقراطية التعليم فيها واتخاذ القرار بدلا من النزعة السلطوية الأشبه باللاهوتية منها، فالأمور تقاس بمقياس الحرية والإبداع، والوعي أحد هذه الأمور، فحتى الجامعة ذات السلطة لابّد أن تخضع لسلطة أخرى موازية لها"[2].

وتوفيقا بين هذا وذاك وإجابة على السؤال الذي انطلقنا منه نقول إنَّ الجامعة ليست هي الهوية الوطنيّة، ولكنها كمؤسسة علمية ذات تأثير من شأنها الإسهام في تعزيز أصالة الهوية الوطنية ومحاربة الاستلاب الحضاري، وفي الوقت نفسه فإنَّ الهوية لن تموت وتنقضي بغياب الجامعة ولكن سيؤدي ذلك – حتماً – إلى تقويضها والتضييق عليها وتراجعها لتحل محلها ثقافة المسخ الثقافي، لذا لابد من تحصين طلاب الجامعات بهوية وطنية ثقافية متينة البنيان واضحة المعالم.

2- مفهوم الهوية وتطبيقاتها في فروع العلوم الإنسانية والاجتماعية: تباينٌ في المبنى ووحدةٌ في المعنى:

مفهوم الهوية من المفاهيم الإشكاليّة التي تتنوّع في المعنى والمدلول بحسب النمط والسياق، ومع ذلك كله فإنَّ الهويّة في مختلف صورها وتجلّياتها تؤكد على جوهر واحد لا يتغيّر، قوامه الاستقلاليّة والتميّز عن الآخر في القيم المبادئ، فالهويّة هي الشيء الذي تهواه أفئدة الجماعة أو الأمة، ومن معنى اللفظ "هُوَ" يكتسي معنى "التميّز" عن الآخر ومعنى"المطابقة" للذات.

سنتفحص المفهوم العام للهوية في أبجديات خمسة فروع ذات أهمية في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية مُعتمدة بالمؤسسات الجامعية الجزائريّة وهي: التاريخ والشريعة وعلم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة، لنتبيّن القواسم المشتركة ونقاط التقاطع بين هذه التخصصات المعرفية، متجاوزين مفاهيم الهويات الضيقة كالهوية العرقية والهوية الطائفية إلى مفهوم الهوية الشاملة التي تعبِّر عن المشترك الأوسع في الانتماء.

بدايةً نقول إنَّ المعرفة التاريخية من أبرز فروع المعرفة الإنسانية، تطرح موضوع الهوية كمصطلح تراثي تحوطه هالة من التقديس، وَرد في التراث القديم بمعاني العزة والإباء والاستعلاء عن الغير في إطار الانتماء القبلي أو العرقي، فالهوية إرث مشترك لمجموع التراث الثقافي والحضاري الذي ترثه جماعة ما عن ماضيها وأسهم في تشكيل كيانها، بل يطرح المؤرخون والمتخصصون في التاريخ موضوع الهوية على أنها وعي الجماعة بتاريخها، ومن خلاله تعرف ذاتها، فالهوية عندهم ليست مُعطى نُولد به، إنَّما لها جذورها في مراحل مُبكّرة من عُمر الإنسان، تُعطيه إحساسًا داخلياً بالوحدة والانسجام والانتماء[3].

فالتراكم التاريخي ضروريّ لصنع الهوية وفهمها، لأنها تعكسُ المستوى الناضج الذي بلغته المجموعات البشرية نتيجة تفاعل قرون طويلة بين أفرادها والتطورات التاريخية التي مرت بها والتي نسجت بينها روابط مادية وروحية مشتركة[4].

فالهوية إذًا تتمايز من خلال تتبُّع السياق التاريخي، وأيٌّ قطيعة مع التاريخ هي نحرٌ للهويّة، وتأسيساً على ذلك تتحمَّل الأقسام التاريخية وشُعَبُها ومخابرُها في مؤسساتنا الجامعيّة مسؤولية ثقيلة في حماية الهوية الوطنية وصيانتها من القطيعة.

ومن فروع المعرفة الاجتماعية علم النفس الذي يرمُقُ الهوية من زاوية مغايرة عن الرؤية التاريخية إلاّ أنَّها تتقاطع معها في الجوهر، فالهوية في الدراسات النفسية هي حالة تماثل في الصفة المميزة، تُشعر الفرد بوجوده في العالم، ومن خلال ذلك يُقيِّمُ الفرد نفسه[5]، أو "إحساس فرد أو جماعة بالذات"[6] ويعرفها آخر بأنها "شعور الشخص بأنه نفسه، نتيجة اتساق مشاعره، واستمرارية أهدافه ومقاصده، وتسلسل ذكرياته، واتصال ماضيه بحاضره ومستقبله"[7].

هذا الارتباط بين مفهوم الهوية وإحساس الفرد بنفسه، بدا للبعض أنه مفهوم قاصر، باعتبار الهوية مستمدة من المجتمع ومؤسساته، إذ إن العائلة والمدرسة والجامعة ومكان العمل وأجهزة الإعلام الجماهيرية تؤدي دوراً حاسماً ومؤثراً في تشكيل الهوية، ومن هنا فإن المجتمع يستمدُّ أفكاره وممارساته منها[8].

لذا ننتقل من التعريف النفسي (الفردي) إلى التعريف الاجتماعي (الجماعي)، فعلم الاجتماع أحد فروع المعرفة الاجتماعية في الجامعات الجزائرية، وله – كما لغيره – مسؤولية في تقديم طرح وتصوُّر صحيح وسليم حول الهوية للأجيال المتعاقبة على مدرجات الجامعة.

وبتتبُّع تعريف أهل الاختصاص للهويّة نجدها تصبُّ في تصوير الهويّة بذلك الإحساس بالانتماء إلى جماعة أو أمة لها من الخصائص والمميزات الاجتماعية والثقافية والنفسية والتاريخية التي تـُعبِّـرُ عن نسيج أو كيان ينصهر ويندمج في بوتقته جماعة بأكملها، وبذلك يصبحون منسجمين ومتفاعلين تحت وطأة الخصائص والمميزات[9].

فالهوية الاجتماعية للفرد هي مجموع انتماءاته لمنظومة اجتماعية، فهي تـُتيحُ للفرد التعرّف على نفسه من خلال المنظومة الاجتماعية المُنتمى إليها، وتـُمكّن المجتمع من التعرّف عليه، فهي عبارة عن هوية "النحن"، بمعنى تلك الصورة أو ذاك الشكل الذي تكوّنه مجموعة معيَّنة عن نفسها، فتنشأ من الداخل (من الأفراد) باتجاه الخارج (تداولها داخل الجماعة)، أي تتشكّل في واقع الأمر من الأفراد لتصبح جماعة[10].

ومن فروع العلوم الاجتماعية التي تعالج موضوع الهوية على مستوى الجامعات الوطنية بحثا وتصنيفا وتنظيراً: الفلسفة بمختلف توجهاتها ومدارسها وأقطابها، والحديث عن الهوية فلسفياً هو حديثٌ عن البناء الفوقي (القيم الروحية والرموز الثقافية) الذي لا يقلُّ أهمية – بل يزيد قيمة – عن البناء التحتي (المجال الاقتصادي والاجتماعي)، ونستحضر هنا كلاما لقطبين من أقطاب الفلسفة العربية المعاصرة، الدكتور حسن حنفي والدكتور عابد الجابري، فالفيلسوف المصري حسن حنفي يربط الهوية كمفهوم وممارسة بالوعي الخالص، والوعي الخالص هوية خالصة، وعي ذاتي، لا صلة له بالبدن والعرق والنسب وكل النظريات العنصرية القائمة على ربط الهوية بالعرق والسلالة[11]، وهو يُقارب ما طرحه قبله الفيلسوف المغربي محمد عبد الجابري حين ربط الهوية بوجود شعور بذلك الوجود والتميّز والاستقلاليّة، وهذا يقوم على وعي بالذات ينطوي على إدراكٍ بتمايزها عن الآخر ولخصوصيتها في ذاتها مهما كانت درجة ذلك الإدراك، حتى لو كان إدراكا أوليا أو بدائيا[12].

ونحن نقلبُ في قواميس العلوم الاجتماعية عن مفاهيم ودلالات مصطلح الهوية، لا يليق بنا أن نتجاوز علوم الشريعة باعتبارها من فروع المعرفة الإنسانية المُعتمدة في المؤسسات الجامعية الوطنية، فالهوية مسألة شرعية تُطرح في المصنفات والمقررات المتخصصة على أنها من صميم الشريعة الإسلامية بل جانب من جوانب العقيدة التي تتأسَّسُ عليها.

فالخطاب الربّاني في القرآن الكريم للمسلمين لم يتوجّه إليهم إلاّ بهوية جماعية واحدة محورها "الإيمان" (يا أيّها الذين آمنوا)، فالله عز وجل يُخاطبهم بوصفهم الأمّة المؤمنة في الأرض، والدّلالة هنا أن التسمية لها منزلة هامّة لدى المسلم، فالله سبحانه وتعالى هو من سمّانا "المسلمين"، قال تعالى: "هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ"[13].

والهوية من المنظور الإسلامي تتجاوز اللغة والجغرافيا والجنس واللون والعرق إلى مفهوم الانصهار في بوتقة الدين (العاني، 2009، 39)، لذا كانت هوية كل مؤمن التي يُقدمها كتعريف لذاته هي قول الله تعالى "ومن أحسن قولاً ممَّن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال إنَّني من المسلمين"[14].

3- إسهام فروع العلوم الاجتماعية في تعزيز الهوية الوطنية: مُقترحات تطبيقية:

سنحاول من خلال هذا العنصر البحث عن الأبواب والمنافذ والقنوات التي يُمكن من خلالها تمرير رسالة الهوية إلى الطلبة والأجيال المتعاقبة على مدرجات الجامعة الجزائرية، فلكل فرعٍ من فروع العلوم الاجتماعية بالجامعة الوتر الحسّاس الذي يمكن أن تضرب عليه للقيام بواجب الحفاظ على الهوية الوطنية، لذا سنقدم جملة من الآليات التطبيقية تنفيذا للتصورات النظرية، هذه الآليات اقتراحٌ منا وليست إملاءً على أحد، فلكل ميدانٍ رجاله، إلا أن الأهداف المشتركة تقتضي توحيد الجهود المعرفية في الجامعة الجزائرية.

ابتداءً يُمكن توظيف المعرفة التاريخية باعتبارها فرعا من فروع المعرفة الاجتماعية كأصدق شاهد حضاري على المصير المحتوم للمنسلخين عن هويتهم الحضارية، والتاريخ باعتباره مخبرا للتجارب الإنسانية يُقدم لنا قواعدَ إنسانية وسننًا ربانية لا تتبدل ولا تتغير، والطالب في الجامعة – كغيره – أشدُّ تصديقا لما وقع حقا، وأبعدُ تصديقا لما قد يقع.

ولو نستحضر من عبق التاريخ شاهدا حضاريا لاكتفينا من صميم التاريخ الجزائري بنموذج يحكي جهود الحركة الوطنية وجهادها من أجل توثيق الهوية الوطنية قبل إعلان الثورة، لأن نجاح الثورة اقترن بتمييز الذات عن الآخر وهو صميم معنى الهوية، لذا بعد الهزيمة العسكرية للاستعمار جهز جيوشا من المستشرقين ضمن غزو فكري يستهدف تحطيم الهوية، بما عُرف بالاستعمار الجديد.

من الواجب أيضاً أن تكون الجامعة منبت المُصنفات والكتابات التاريخية الموجَّهة لكل الفئات الاجتماعية سواء الأكاديمية أو الهاوية، وهو مطلب غاية في الأهميّة إذا علمنا الارتباط الوثيق بين التاريخ والهويّة، والمُتتبع للتاريخ الوطني يُدركُ أنَّ إنتاج المعرفة التاريخية أسهم في الحفاظ على مقومات الهوية في بُعديْها الديني واللغوي في ظروف كثيرة التعقيد، واليوم تجدّد التحدّي المتمثل في الاختراقات الغربية للهوية الوطنيّة بأساليب ووسائل متجدّدة، فكان لزاماً علينا أن نجدّد بدورنا البحث في مهارات التوظيف العلمي للمعرفة التاريخية في صنع الوعي بالهويّة الوطنيّة.

أدعو من هذا المنبر القائمين على الدراسات التاريخية في الجامعات الجزائرية إلى الاجتهاد في تقديم واستحضار تجارب تاريخية وشواهد حضارية مُوثـّقة تـُرسِّخ في أذهان الطلبة أنَّ مسألة الهوية ليست مسألة اختيارية أو وجهة نظر تحتمل الأخذ والرد، بل مسألة وجود يـُرْتَهَنُ عليها مُستقبلهم.

وللجامعات الجزائرية مدخل مُهم لتوطين الهوية في نفوس الناشئة الجامعية، وهي توظيف علوم الشريعة باعتبارها فرعاً من فروع المعرفة الاجتماعية، فلن نختلف إذا سلّمنا أنَّ المجتمع الجزائري مجتمع ديني تتحكم فيه العاطفة الدينية، يشترك في ذلك الملتزم بالدين والمنحرف عنه سلوكيا، فللدين تأثير عجيب في توجيه الأفراد كما في توجيه المجتمعات، وللقائمين على هذا الثغر في الجامعة الجزائرية فرصة توظيفه حق التوظيف من أجل ترسيخ معالم الهوية الوطنية بمختلف أبعادها باعتبارها واجبا دينيا قبل أن تكون سلوكا حضاريا.

ولن يجد أدنى باحث في هذا الجانب المعرفي من العلوم الاجتماعية جهدا في رصد الآليات التي تـُشكل مادة دسمة تـُقـَدَّم للناشئة الجامعية من أجل إعادة أمجاد الهوية الدينية.

وبعيداً – كل البُعد – عن الاختلافات المذهبية والآراء المتناقضة نجد في الأحكام القرآنية المُتـَّفق عليها وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم ما نستحضرهُ – حصرا لا قصرا – كشواهد يُمكن اعتبارها آليات تطبيقية تـَحُدُّ من النزيف الهويّاتي.

منها مثلاً: هجرته صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة أملا في إقامة المجتمع والشخصية ذات الهوية الإسلاميّة المتميزة والمُتبرئة من الشرك وأهله وأحوالهم، وتبعاً لذلك توارت النصوص النبويَّة المُحذرة والمشنِّعة على المنسلخين عن هويتهم المتشبهين بغير المسلمين، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ» (ابن حبان،.....)، وذكر أهل الشريعة أن النهي عن التشبه بالآخرين عامٌّ في الخَلق والخُلُق والشعار[15]، لذا حرصت الشريعة في أحكامها على ضرورة إظهار مخالفة غير المسلمين في هويتهم براءةً منهم، وإبرازاً للهوية الإسلامية.

من ذلك مثلاً لما أراد المسلمون استحداث نداء للصلاة ذكروا للنبي صلى الله عليه وسلم الْبُوقَ فَكَرِهَهُ لأنه من شعارات اليهود، ثُمَّ ذَكَرُوا النَّاقُوسَ فَكَرِهَهُ لأنه من شعارات النصارى (البيهقي،....).

من ذلك مثلاً مخالفتهم في لغتهم وكلامهم في غير حاجة لذلك، والمحافظة على لغة القرآن، قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: لا تَعَلَّمُوا أبناءكم رَطَانَةَ الأَعَاجِمِ[16]، والمقصود بذلك اعتياد الخطاب بغير العربية حتى يصير ذلك عادة للبلد وأهله دون الحاجة إلى ذلك.

ومن رحاب كليات وأقسام العلوم الشرعية تصدر فتاوي المعتقدات والمعاملات والسلوكيات، وهي ضابط آخر يُوجه البوصلة الهويّاتية في المجتمع، ومن صور العلاقة بين الفتوى والهوية أن الفتوى من أعظم الوسائل التي تحافظ على هوية

المسلم وبخاصة في جانب التعامل مع غير المسلمين، أو الآخر المتميّز عنّا بهويّته وقيمه، فالعلاقة بين المسلم وغيره يجب أن تكون مضبوطة بالضوابط التي حددها الشرع، وخاصة في هذا الزمان الذي التبست فيه الأمور وكثر الجهل بالدين واختلط الحابل بالنابل وأصبح المسلمون لا يتميزون عن غيرهم في مظهرهم العام أو مخبرهم الخاص، ثم إن العلاقة بين الفتوى والمحافظة على الهوية لا تكمن في بيان نصوص الشريعة للمستفتي وبخاصة إذا كان المستفتي يعيش في بلاد غير إسلامية (الطيار،...)، فانزواء الجامعة دون هذه المهمة يؤدّي إلى الفتوى الفوضويّة والتي تضيع معها معالم الهوية.

بعد هذه الوقفة مع العلوم الإسلامية وما يمكن أن تقدمه في هذا الجانب نقف عند أقسام علم النفس بالجامعات الجزائرية لنقترح لمسةً نفسية إسهاماً في توظيف علم النفس باعتباره فرعا من فروع المعرفة الاجتماعية في تجديد الاعتزاز بالهوية ، في هذا المضمار نقترح استفزاز الناشئة الجامعية من خلال إثارة واستشعار الأجيال المتعاقبة على الجامعة بمركب النقص أو ما يُعرف بعقدة الدونية المتوارثة جيلا بعد جيل، وهي عقدة لا يُنكرها مُنكر أمام هذا الانبهار الجماعي بكل ما هو غربيٌ صالحًا كان أم طالحًا، موافقًا للهوية كان أم مناقضًا ليُصبح حديثنا هنا تشخيصًا لمرض نفسي مكتمل الأركان يحتاج إلى علاج من خلال استفزاز نفسية الطلبة.

فمن الأسباب التي تُسهم في ضياع الهوية شعور نفسي ناتج عن انعدام الثقة في الذات بسبب وجود هالة ضخمة تصوّر الإمكانات المادية والحضارية للآخر، وأورد ابن خلدون في مقدمته قاعدة تاريخية اجتماعية غاية في الأهمية، وهي أن المغلوب كثيرا ما ينسلخ من هويته ليتلبَّسَ بهوية الغالب، يقول ابن خلدون رحمه الله تعالى مُنبِّهاً ومُحذراً ومُرشداً: " المغلوب مُولع أبدًا بالاقتداء بالغالب، في شعاره وزِيِّه ونحلته، وسائر أحواله وعوائده "[17].

إنّ ابن خلدون بهذه النظرية في علم النفس الاجتماعي سبق عصره، وكل من جاء بعدهُ جاءَ شارحاً ومُفصلا لهذا التنظير النفسي، فالتماهي بالغالب مصطلح أدخله "فرويد" في مصطلحات علم النفس وتحدث عنه " فرانتز فانون" في كتابه "معذبو الأرض "، ولكن ابن خلدون مبدعها وكاشف أحوالها، نجد في مقدمته ما نصُّه "لذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها بل وفي سائر أحواله"، وبهذا يكون ابن خلدون قد لخص أبرز أفكار علماء النفس والاجتماع من "فرويد" و"ماركيوزة" و"باولو فريري" و"فانون" في حديثهم عن تعليم المقهورين نفسياً واجتماعيا، وتماهي المقهورين بالقاهرين، في الجزء الأول من الفصل الثالث والعشرون من مقدمته تحت عنوان: "المغلوب مُولع أبدًا بالاقتداء بالغالب، في شعاره وزِيِّه ونحلته، وسائر أحواله وعوائده"، حيث رسم بالقانون الاجتماعي هذا خارطة معرفية لسير عملية الاقتداء والتقليد والتي تؤدي بالضرورة إلى التماهي والتوحد في سلوك وأفكار وعادات وأسلوب حياة الغالب من خلال المعادلة المعروفة بأنّ "المنتصر هو الذي يصنعُ الواقع المفروض على المغلوب وفقا لقواعد اللعبة"، والهزيمة هنا لا تعني الجانب الفيزولوجي فقط وإنما تتخلل وتتسابُ إلى المستويات النفسية والاجتماعية" والسبب كما يُفسره ابن خلدون دائما "والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه"[18].

ومن الممكن اعتبار عقدة الشعور بالدونية جرحاً نفسياً يجعل الهوية تنزف حتى تتقضي، ويضع المهزوم أمام خيارين إما الاستسلام لهذا الجرح حتى يُجهز عليه، أو استعادة أنفاسه ورمرمة أوضاعه ومحاولة النهوض من جديد، والتخلص من حالة الاستلاب الوجودي والعقائدي له من خلال الممانعة والمقاومة.

فالشعور بالدونية مرض نفسي ينشأ من شعورٍ يحدو بالمرء إلى الإحساس بأنَّ الآخر خير منه، ويستحيل مجاراته، ممّا يدفعه إلى الانبطاح والانقياد للآخر هملاً وذيلاً في قافلة الحياة، فلا يكون لبنة في صناعة مستقبله، ولا يُحرك ساكناً إلا بإيعاز من الآخرين، فهو يعيش في محيطة على هامش التأثير فقط، يتأثَّرُ ولا يؤثِّر.

وعند الحديث عن توظيف علم الاجتماع باعتباره فرعا من فروع المعرفة الاجتماعية في الجامعة الجزائريّة ندعو القائمين على هذا المجال المعرفي إلى معالجة موضوع الهويّة كمسؤوليّة جماعيّة يشترك فيها الوالد وما وَلد، والحاكم وما حَكم، والغنيّ والفقير، والذكر والأنثى، فهي مسؤوليّة جماعية، والانسلاخ عن الهويّة والتخلي عن الوطنيّة انتحارٌ جماعيٌ.

تُعتبر المسؤولية الجماعية الاجتماعية من أهمّ دعائم الحياة المجتمعية الهامة، فهي وسيلة تضمن الأمن والرفاهية على المستويين الفردي والجماعي، بل إن التنمية والتقدم البشري يقومان على المسئولية الجماعية الواعية، حيث تـُقاس قيمة الفرد في مجتمعه بمدى تحمُّـله للمسئولية اتجاه نفسه واتجاه الآخرين، والمواطن المسؤول هو الذي يُدرك دوره كإنسان اتجاه نفسه واتجاه نمو وتطور مناشط الحياة في مجتمعه، فالمسئولية الاجتماعية بهذا المعني هي مسئولية الفردية عن الجماعة، وهي مسئولية الفرد أمام ذاته عن الجماعة التي ينتمي إليها، حيث إنها تكسبه لذة الشعور بقوة الجماعة، وعواطفها المشتركة، وموروثها الجماعي، وكل هذا من شأنه أن يربط الطالب المتلقي بهويّته انتماءً واعتزازاً.

فتصحيح مفهوم المسؤوليّة الجماعيّة يدفع الطلبة في الجامعة إلى إعادة التموقع، باعتبارهم –أي الطلبة– جزءًا من الصراع الحضاري وليسوا بمنأً عنه وغيرَ معنيِّين به، وأنَّ المسألة هي شأن واختصاص الساسة وكبار المثقفين، وتوعيتهم بأن موضوع الهويّة ليس مجرَّد بحث أو درس لتحصيل علامة تجعله يجتاز امتحان ومرحلة وسنة جامعية إلى أخرى، فمسؤولية الدراسات الجامعية في هذا الحقل المعرفي تصحيح المفهوم واستشعار الطالب بهذه المسؤوليّة وأنه المستهدف الأوَّل من طرف لصوص الهوية.

إلى جانب ذلك كله يُمكن توظيف المعرفة الفلسفية باعتبارها فرعاً من فروع المعرفة الاجتماعية لبناء حوار مؤسَّس على الإقناع ترسيخاً للهوية في أذهان الناشئة، لأنَّ غياب فضيلة الحوار في الجامعات بين فريق التكوين وجموع الطلبة سُيضيِّعُ علينا فرصة التواصل وتبليغ الرسالة، وغياب الحوار يُشكِّلُ رواسب تتطور إلى قطيعة، ثمّ تتطور القطيعة إلى رفض مطلق لما يُبلِّغُه فريق التكوين فتضيع الرسالة ومن بينها رسالة الهوية.

لذا ندعو أهل الفلسفة بما أوتوا من آليات الحوار والنقاش والتحليل إلى فتح حوار مؤسَّس يُفضي إلى إقناع علميّ يستحضر ما يُحيط بالناشئة ولا يقفز على واقعهم وحقيقة معاشهم، فالحوار من أنجع الآليات لفهم الذات وفهم الآخر واحترامه والتعايش معه دون التخلي عن الذات وهويَّتها المتميِّزة.

4- وقفات استنتاجية وتوصيات عملية:

وفي الختام قواعد وفوائد مُستقاة من وحي العلوم الاجتماعية في حركيَّة ترويضها لظاهرة النزيف الهويّاتي وكبح جماحها والحدّ من خطورتها، وإعادة بعث الاعتزاز بالهوية والوطنية في نفوس الناشئة المتعاقبة على مدرجات الجامعة الجزائريّة، من ذلك:

1– تجنيد مختلف فروع العلوم الاجتماعية من تاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع والشريعة والفلسفة كلٌّ في ميدانه من أجل تقريب وتبسيط مفهوم الهوية والوطنيّة، ومن ثمّ تطبيق ما يُمكن تطبيقه من معطيات وآليات ومعارف للنفوذ إلى نفسية الناشئة من أجل ربطهم بهويتهم وانتمائهم الحضاري والوطني.

2– طرح موضوع الهويّة طرحاً علميّا مؤسّساً في أروقة ومدرجات وأقسام ومخابر ومقررات الجامعات الجزائرية عن طريق العناية بمختلف فروع المعرفة الاجتماعية تكوينًا وتوظيفًا، وعدم إقصائها أو استبعادها في معالجة موضوع الهويّة، واعتماد فروع العلوم الاجتماعيّة كعلاج بديل عن سياسة الإملاء والإكراه التي أثبتت فشلها.

3– يُمكن للعلوم الاجتماعية بمختلف فروعها في المؤسسات الجامعيّة الجزائريّة أن تُغطي موضوع الهويّة في مقرراتها من مُنطلق: بُعد تاريخيّ مُعمَّق، وأمر دينيّ مُشرّع، وتنظير فلسفيّ مُؤسّس، وتوجيه اجتماعيّ مُصوّب، وعلاج نفسيّ مُجرّب.

4– الدعوة إلى جعل الفضاءات الجامعية أرضية تنمو فيها جذور الهوية الوطنية وتـُزهر باعتبارها المحضن الفكري الآمن لشباب هذه الأمة.

5– الدعوة إلى تشكيل نسيج جامعي فكري نـُخبوي مُدرك لحجم المسؤولية المنوطة به من أجل الحفاظ على مقومات الهوية الوطنية.

6– الدعوة إلى العناية دراسةً وبحثاً بموضوع الهوية الوطنية في مختلف الأطوار والتخصصات الجامعية في حقل العلوم الاجتماعية.

7- الدعوة إلى تنسيق مُحكم بين المؤسسات الجامعية ومؤسسات المجتمع المدني الرسمية والجمعوية من أجل نشر وإذاعة ثقافة العناية بالهوية.

التهميش:

1- إبراهيمي الطاهر، الجامعة ورهانات عصر العولمة "الجامعة الجزائرية نموذجا"، مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية، المجلد: 04، العدد: 08، جامعة باتنة، 2007م.الطاهر، 2007، ص 148.

2- قولسمي مـرا، الجامعة وصورتها في المجتمع... ما مدى مساهمة الجامعة في ميلاد الوعي الاجتماعي؟) ما وظيفة الجامعة في تنمية الوعي الاجتماعي؟، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية / جامعة وهران1 / العدد 70/جانفي 2017م، ص 34-35.

3- كركوش فتيحة، "إشكالية بناء الهوية النفسية الاجتماعية"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة وقلة، العدد: 16، سنة: 2014م ، ص 12.

4- نفسه.

5- بخوش أحمد، التراث الثقافي الشاوي بين الثابت والمتغير، الملتقى الدولي الأول حول: الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري المنظم في جامعة قاصدي مرباح، 2014م. (بخوش، 2014، 265).

6- علي سعيد إسماعيل، الهوية والتعليم، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 2005م، ص 32.

7- صومائيل هنتكتون، من نحن –التحديات التي تواجه الهوية الأمريكية، ترجمة: حسام الدين خضور، دار الحصاد، دمشق، 2005م، ص 37.

8- العيسوي، عبد الرحمن، نظريات الشخصية، دار المعارف الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2002م، ص 16.

9- شرقي رحيمة، الهوية الثقافية الجزائرية وتحديات العولمة، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ورقلة، العدد: 11، جوان 2013م، ص 189.

10- يان يسمن، الذاكرة الحضارية (الكتابة والذكرى والهوية السياسية في الحضارة الكبرى الأولى)، ترجمة: عبد الحليم عبد الغني رجب، مكتبة الأسرة، القاهرة، مصر، 2013م، ص 21.

11- حسن حنفي، الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2012م، ص 67.

12- عابد الجابري، الموسوعة الفلسفية العربية، مركز الإنماء العربي، بيروت، 1976م، ص 722.

13- (سورة الحج، 78).

14- (سورة فصلت، 33).

15- الملا علي القادري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، دار الفكر، بيروت، 2002م، ص 95.

16- ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم،طبعة السنة المحمدية- القاهرة، 1976م، ص 511.

17- ابن خلدون،المقدمة، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1391هـ- 1971م، ص 123).

18- بلال عوض سلامة، ثقافة الغالب والمغلوب في فكر ابن خلدون: قراءة فلسطينية، مقال ضمن فعاليات المؤتمر الدولي: ابن خلدون: علاّمة الشرق والغرب، كلية الآداب في جامعة النجاح، نابلس، فلسطين، 2012م سلامة، 2012، ص 1-2.

- ببليوغرافيا المقال:

1- إبراهيمي الطاهر، الجامعة ورهانات عصر العولمة "الجامعة الجزائرية نموذجا"، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، ، جامعة باتنة، العدد: 08 المجلد: 04 ، 2007م.

2- ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، طبعة السنة المحمدية – القاهرة، 1976م.

3- ابن حبان، بلوغ المرام، دار الصديق، 2002م.

4- ابن خلدون: "المقدمة، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1391هـ – 1971م.

5- بخوش أحمد، التراث الثقافي الشاوي بين الثابت والمتغير ، الملتقى الدولي الأول حول: الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري المنظم في جامعة قاصدي مرباح، 2014م.

6- برهان حافظ عبد الرحمان، دور التعليم العالي في تعزيز الهوية الفلسطينية وأثره على التنمية السياسية من وجهة نظر الطلبة والعاملين جامعة النجاح أنموذجا، رسالة مجستير، 2010م.

7- بلال عوض سلامة، ثقافة الغالب والمغلوب في فكر ابن خلدون: قراءة فلسطينية، مقال ضمن فعاليات المؤتمر الدولي: ابن خلدون: علاّمة الشرق والغرب، كلية الآداب في جامعة النجاح، نابلس، فلسطين، 2012م.

8- البيهقي،1424 هـ - 2003 م، السنن الكبرى، ،دار الكتب العلمية، الطبعة: الثالثة ، بيروت – لبنان.

9- حسن حنفي،2012، الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، مصر ،

10- خليل العاني، 2009 م ، الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، العراق.

11- شرقي رحيمة، الهوية الثقافية الجزائرية وتحديات العولمة، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ورقلة، العدد: 11، جوان 2013م.

12- صومائيل هنتكتون، 2005م ، من نحن –التحديات التي تواجه الهوية الأمريكية، ترجمة: حسام الدين خضور، دار الحصاد، دمشق.

13- عابد الجابري،1976م، الموسوعة الفلسفية العربية، مركز الإنماء العربي، بيروت.

14- عبد الله بن أحمد الطيار، أثر الفتوى في المحافظة على الهوية الإسلامية، ملتقى: الفتوى واستشراف المستقبل، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة القصيم، السعودية، 1434هـ.

15- علي سعيد إسماعيل،2005م، الهوية والتعليم، عالم الكتب، القاهرة، مصر.

16- العيسوي عبد الرحمن، 2002م، نظريات الشخصية، دار المعارف الجامعية، الإسكندرية ، مصر.

17- قواسمي مرا، الجامعة وصورتها في المجتمع... ما مدى مساهمة الجامعة في ميلاد الوعي الاجتماعي؟)ما وظيفة الجامعة في تنمية الوعي الاجتماعي؟، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية ، جامعة وهران ،1العدد 70، جانفي 2017م.

18- كركوش فتيحة، " إشكالية بناء الهوية النفسية الاجتماعية "، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ورقلة، العدد: 16، 2014م.

19- الملا علي القادري، 2002م ، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، دار الفكر، بيروت.

20- يان يسمن، 2013م، الذاكرة الحضارية (الكتابة والذكرى والهوية السياسية في الحضارة الكبرى الأولى)، ترجمة: عبد الحليم عبد الغني رجب، مكتبة الأسرة، القاهرة، مصر.